



4 نوفمبر 2019
بقلم الأديب/ عبدالرحمن البنا

أنا لا أقصد أكبر محيطات الدنيا، ولا أعني أعظم كمية مياه تغمر المعمور، ولست كذلك أريد التحدث عن رابع خليفة عباسي ولا إصباح فتوحاته وبيان أيام خلافته، ولكنني أتمس النور من مصدره، وأبتعثُ النور من مشرقه.

وأريد في كلمتي هذه أن أقتبسَ قبساً من نور الهداية المحمدية، وإذا كان المحيط إذا أدخل البحر لا ينقص منه شيئاً أو يزيد فكذلك حديثي عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- مهما أقصت فيه فليس يبلغ من عظمة سيد الكائنات- صلى الله عليه وسلم- شيئ، ولكنني أشرف قلمي بالكتابة في سيرته المباركة وأسعد نفسي بالتحدث عن مولده الميمون صلوات الله وسلامه عليه.

ما إن مدحت محمدًا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

وكيف يمكن لكاتبٍ مهما سما فلمه وعظم بيائه أن يصف لنا نور الله الذي ألقاه على رسوله- صلى الله عليه وسلم- فإذا بالنور في السموات العلى، وإذا النور في شعاب مكة وسبل المدينة وما بينهما وما تحت الثرى، وإذا النور في قصور الشام وبلاد الأعجام ومدائن كسرى.. بل كيف يمكن لبلوغ منطق أن يحدثنا عن جبريل يوحى إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ما أمر الله به أن يوحى، يفصل له ما جاء به من البنات والهدى.

بل كيف يتسنى لبارع في الوصف وماهر في التصوير أن يصف لنا ما أطلع الله رسوله عليه ليلة المعراج والإسراء «وهو بالأفق الأعلى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتَمَارَوْتَهُ عَلَى مَا بَرَى (12) وَلَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)» (النجم).

يا قوم إن النور قويٌّ فعضوا أبصاركم لئلا تُغشى، والليل والنهار يتعاقبان ولكن ليس لهذا النور من ليل يَغشى، والمؤمنون يُمضون والكافرون يُحجبون، وإنَّ سعيكم ليشنى «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)» (الليل).

فأما الذين يتأدَّبون عند ذكر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ويصلُّون عليه إذا ذُكر ويُعظَّمونه إذا ساقوا أحاديثه الشريفة أو تأملوا سيرته المطهرة.. فأولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأما الذين يتعالون جفوةً ونبوةً وبنجافون فطاطةً وغلظةً.. فأولئك الأخسرون أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!

أفترون حياة محمد- صلى الله عليه وسلم- أفاصيص تلوونها لعباً ولهواً؟ أم ظننتم سيرته المطهرة حكايةً تمرن بغير وقار على هامشها؟ أم حسبتم أن تتركوا تخلصون الجد بالهزل وتمرون بظلام الضلال على نور الهدى؟!

كلًّا والذي أظهر نور الإيمان على ظلام الشرك والإلحاد وانتقم ممن بقي من القرون الأولى «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَنُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْعِصَادَ (12) قَصَبَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (14)» (الفجر).

إنَّ الفراشة لتطوف بالنار حتى تحترق، وإن الأحرق ليلعب بالسيف حتى يقطع يده، وإن قومًا تصدَّوا لسيرة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ولمَّا يعرفوا حقه ويدركوا حبه لمُنَّبَرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون.

لا أريد أن أعلو حتى لا يقال مدحوا رسولهم بما لم يأذن به الله، ولكنني نالٍ عليكم قول الله تعالى في حق رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسائقٌ لكم مثلاً من أدب السابقين الأولين:

بسم الله الرحمن الرحيم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ

بَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ
الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)﴾ (الحجرات).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: لما نزلت هذه الآية جلس ثابت
بن قيس في بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبي- صلى الله عليه وسلم- فسأل النبي- صلى الله عليه وسلم- سعد بن
معاذ فقال يا أبا عمر وما شأن ثابت؟! أيشتكى؟! فقال سعد إنه لجاري وما علمت له شكوى، فأناه سعد فذكر له قول رسول الله-
صلى الله عليه وسلم- فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنني من أرفعكم صوتاً على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فأنا
من أهل النار، فذكر ذلك سعد لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال عليه الصلاة والسلام: "بل هو من أهل الجنة" زاد في رواية
"فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجلاً من أهل الجنة" (لفظ مسلم وللبخاري نحوه).

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ قَعَدَ ثَابِتٌ فِي الطَّرِيقِ يَبْكِي فَمَرَّ بِهِ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ فَقَالَ مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ
أَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ أَنْزَلَتْ فِيَّ وَأَنَا رَفِيعُ الصَّوْتِ عَلَى النَّبِيِّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَخَافُ أَنْ يُحْبِطَ عَمَلِي وَأَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ
فَمَضَى عَاصِمٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلِبَ ثَابِتًا الْبِكَاءَ فَأَتَى أَمْرًا تَجَمُّلاً بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنْدَةَ فَقَالَ
لَهَا: إِذَا دَخَلْتُ بَيْتَ فَرَسِي فَشَدِي عَلَى الصَّبِيَّةِ بِمَسْمَارٍ فَضَرِبْتَهَا بِمَسْمَارٍ وَقَالَ لَا أَخْرَجُ حَتَّى يَتَوَفَّيَنِي اللَّهُ أَوْ يَرْضَى عَنِّي رَسُولُ
اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَتَى عَاصِمُ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: "أَذْهَبُ فَادْعُهُ"، فَجَاءَ عَاصِمٌ إِلَى الْمَكَانِ
الَّذِي رَأَاهُ فِيهِ فَلَمْ يَجِدْهُ فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِ الْفَرَسِ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدْعُوكَ فَقَالَ أَكْسِرُ
الصَّبِيَّةَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟" فَقَالَ: "أَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ
الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعْبُدَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ" فَقَالَ رَضِيئٌ
بِشَرِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَبَدًا.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ
أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، وَاسْتَشْهَدَ ثَابِتٌ يَوْمَ الْيَمَامَةِ فِي حَرْبِ مَسِيلِمَةَ فَكَانَ مَصْدَقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات: من الآية 2) قال أبو هريرة وابن عباس لما أنزلت هذه الآية
كان أبو بكر لا يكلم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلا كآخي السرار، وقال ابن الزبير: لما نزلت هذه ما حدثت عمر النبي- صلى
الله عليه وسلم- بعد ذلك فسمع النبي- صلى الله عليه وسلم- كلامه حتى يستفهمه مما يخفص صوته فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾.

وهل أنك حديث عثمان- رضي الله عنه- حينما سأل قباث بن أشيم أخا بني يعمر بن ليث أنت أكبر أم رسول الله- صلى الله عليه وسلم-
وسلم-؟ فقال قباث: رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أكبر مني وأنا أقدم منه في الميلاد.. وحينما طرح عليه نفس السؤال
الخليفة عبد الملك بن مروان قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أكبر مني وأنا أسن.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ وَفَّقَهُ اللَّهُ صَلَاةً
مُيَبَّغَةً﴾ (36)﴾ (الأحزاب).

أما مولده الشريف- صلى الله عليه وسلم- فسل عنه النار وقد خمد اشتعالها، والأصنام وقد خرت على وجوهها، بل سل عنه
كسرى وإبوانه، وقد أخذ الذهول والعجب مرارته وأعوانه، فقد روى مخزوم بن هانئ عن أبيه- وأنت عليه خمسون ومائة سنة-
قال لما كانت الليلة التي وُلِدَ فيها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ارتجس إبوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة
وخدمت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبدان إبلاً صعباً تقود خيلاً عراقياً قد قطعت دجلة
وانتشرت في بلادهم، فلما أصبح كسرى أفزع ذلك فتصبر عليه تشجراً، ثم رأى ألا يدخر ذلك عن مرارته فجمعهم ولبس تاجه
وجلس على سريره ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال: "أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا، إلا أن يُخبرنا الملك، فبينما هم
كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازداد عماً إلى عمه ثم أخبرهم بما رأى وما هاله، فقال الموبدان وأنا- أصلح الله الملك- قد
رأيتُ في هذه الليلة رؤيا ثم قصَّ عليه رؤياه في الإبل، فقال: أي شيء يكون هذا يا موبدان؟ قال حدث يكون في ناحية العرب-
وكان أعلمهم من أنفسهم- فكتب عند ذلك: "من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد فوجه إليَّ برجلٍ عالم بما أريد
أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نصيلة الغساني، فلما ورد عليه قال له: "ألك علم بما أريد أن أسألك
عنه فقال لتخبرني أو ليسانني الملك فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بما يعلم، فأخبره بالذي حدث فقال: علم ذلك عند خال
لي يسكن مشارق الشام يُقال له سطيح، فقال له: فأسأله عماً سألتك عنه ثم عاني بتفسيره، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى
سطيح، وقد أشغى على الصريح فلما أنه قال سطيح: عبد المسيح على جبل مشيخ أنى سطيح، وقد أوفى على الصريح بعنك
ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبدان رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عراقياً، قد قطعت دجلة وانتشرت في
بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخدمت نار فارس
فليس الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، ثم مات سطيح وهو في مكانه،
فانطلق عبد المسيح إلى راحته وهو يقول:

شمر فإنك ماضي العزم شمير لا يفر عنك تفريق وتغيير

ن يمس ملك بني ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر أطوار دهارير

فربما ربما أضحووا بمنزلة يخاف صولهم الأسد المهاصير

منهم أخو الصرح بهرام وأخوته والهرمزان وسابور وسابور

والناس أولاد غلات فمن علموا أن قد أقل فمحفور ومهجور

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور

بلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح فقال كسرى: إلى أن يملك أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور.

لقد كان مولد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يومًا أظهر الله فيه نوره وأطلع فيه سراجة وقذف به على الباطل فإذا هو زاهق وقضى به على زمن الشرك وعبادة الأصنام.

فيأتيها الحجارة المصورة أصنامًا كوني السنة توحيد وآيات إيمان ﴿وَإِنَّ مِنْ الْجِبَارَةِ لَمَا يَتَّعَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّعَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية 74).

ويأتيها النار كوني شاهدًا على قدرة الله وقوته ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: 80) وكوني نذيرًا لأعداء الله ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: 46).

ويا كسرى شاهنشاه ملك الملوك: انظر إلى إبانك تزلزلت أركانه، وإلى صرحك كيف تصدع بنيانه، وإلى سواريك كيف وعدهما رسول الله- صلى الله عليه وسلم- سراقه بن مالك الجعشمي أعرابيًا من بني مدلج، وإلى الملك كيف يؤتبه الله من يشاء وينزعه ممن يشاء، وإلى الأرض كيف يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين".